القوافل الصحية والحوار الجماهيرى ماالذى حققه جمهور العريش؟

د. محمد شعلان

التعبير

أشرنا إلى أن للظاهرة وجهين يكملان بعضهما بعضا . ومثلناهما بالقافلة والجمهور . وتناولنا بالتحليل أهداف القافلة ودوافعها . والآن نتعرض بالتحليل للوجه الآخر والمكمل الذى أكدنا أنه ليس مجرد الجانب المتلقى والمفعول به ، ولكنه أيضا يعطى ويفعل . فما الذى أعطاه الجمهور وما الذى هدف إليه وحققه ؟

الجمهور :

إن مواطنى المناطق النائية المتطرفة بصفة عامة دائما يثيرون الشكوك كما أنهم يعانون من القلق وحيث إنهم على الأطراف ويبعدون عن مركز السلطة فى المجتمع فهم يتمتعون بدرجة من الحرية بعيدا عن السلطة المركزية .

فالفرد فى المدينة مثلا عليه أن يتبع النظام ويسير وفق القانون . وإذا تمرد فهو فى موقع المخالف للقانون . وعليه أن يلبس ويأكل ويسكن مثلما يعمل الناس . بينما مواطن الأطراف وخاصة البدوية يستطيع أن يأخذ ناقته ويذهب إلى الصحراء أو يعبر الحدود فى أى اتجاه داخليا أو خارجيا .

وهم من جانب آخر يعانون من القلق . فالمسافة بينهم وبين الوطن الأم تجعلهم يشعرون كأنهم الابن المهمل . فهم لا يتلقون ذات الاهتمام الذى يتلقاه مواطنو المدن المركزية . وصوتهم لا يسمع . بل إن التاريخ قد علمهم أنهم من الممكن أن يتنقلوا من حيازة دولة إلى حيازة أخرى ، تاهيك عن احتلالهم الاجتماعى والاقتصادى عبر الحدود مع هذه الدولة أو تلك .

هكذا جمهور العريش فقد تأكدت له هذه الحقيقة المؤلمة عبر التاريخ الحديث مرتين :

فى ١٩٥٦ حيث لم تستمر الفقلة إلا شهورا وفى ١٩٦٧ حيث استمرت التى عشر عاما لقد انتقلت تبعيتهم بين الحكومة المصرية تارة وبين الحكومة الإسرائيلية تارة أخرى . وكانت كل سلطة تعاقب بضراوة كل من كانت له تعاملات مع السلطة الأخرى .

وكان الانفصال بين أبناء سيناء والوطن الأم أشبه بالانفصال بين مواطنى الدول الأجنبية . فالتصاريح عقبة منيعة تقف فى طريق التفاعل الطبيعى بين المجتمع الأم والمناطق النائية . وكان كل من يذهب إليها أو يأتى منها يعتبر غريبا .

أولا الشيوخ :

مواطنو العريش أيضا جيلان مثل الشباب والأساتذة . فالجيل الأول عرف أصيل بل هو أصل العروبة . كان يتنقل بيسر بين الشام (بمعنى فلسطين والأردن ولبنان وسوريا) من جانب والجزيرة العربية من جانب آخر . وهذا استمرار للطابع البدوى الذى يتنقل من موقع إلى موقع . ويتعامل مع كل جار يعاونه على مواجهة قسوة الحياة دون أن يذعن لأحد أو يذيب هويته . وإذا كان قد فعل ذلك فإنه لم يتخل أبدا عن هويته العربية بدليل مرور التى عشر عاما من الاحتلال استجاب البعض منهم فما يإيقاف مصالحهم الاقتصادية والاعتكاف طيلة الفترة منتظرين التحرير . .

فهم لم يعترفوا بإسرائيل أو يعرفوها حقيقة . والاستعمار بالنسبة لهم ليس كل من يتسلط عليهم أو يتميز عنهم أو يتعالى عليهم . بل كل ما عرفوه أن هناك هوية عربية وهوية يهودية .

ولكنهم كانوا فى حاجة لأن يعيشوا . إن فترة التى عشر عاما من الاحتلال تفرض التعامل من أجل البقاء . . قد تستمر المقاومة نفسية ، أو تظهر منها طفرات مادية بين حين وآخر وتتقدم بطولات هنا وهناك تعبر عما فى داخل النفوس . ولكن المعادلة الحتمية لابد أن ترجح التعايش .

لقد تعايشوا مع « اليهود » وتعاملوا معهم لا محالة دون أن يؤثر ذلك على ولائهم الحقيق الداخل . بل زادهم ولاء لعروبتهم ، فهم رغم كل الحقوق المدنية التى أتيحت لهم كأفراد كانوا يدركون أن العروبة لا تندى لها مع اليهودية . فالانتماء الاجتماعى المستمر عرفى حتى لو كان التعامل الفردى والمؤقت مع إسرائيل .

هكذا كان أول درس قدمه شيوخ العريش : كيف تتعامل مع الآخر دون أن تذوب فيه أو تخضع له ، كيف تستمر عربيا رغم تعاملك مع « اليهود » ؟ وكيف لابد من مواجهة حقيقة المشكلة أن إسرائيل هى فى جوهرها تأكيد وبحث عن هوية يهودية . وليست مجرد مخلب قط للاستعمار كما يحلو لنا أن نبسط الأمور ، وأن « اليهود » مهما كانوا يريدون المواطنة فى المنطقة دون أن يعاملوا على أنهم مجرد عميل أو جسم غريب زائل . لقد تعاملوا مع « اليهود » باللغة العربية التى يجيدها الكثير منهم . بل إن حاكم العريش فى فترة ما كان من أصل مصرى . وأبعد من ذلك استطاع أن يشاركهم العزاء فى وفاة الرئيس الراحل عبد الناصر .

ومن جانب آخر بينوا أن المعاملة مع السلطات الإسرائيلية مرت بمرحلتين الأولى قبل ١٩٧٣ حتى كانوا يعاملون معاملة الشوائب البشرية التى تلوث منطقة حدود إسرائيل الجديدة وهى منطقة سيناء . وبعد ١٩٧٣ كانوا يعاملون معاملة تم عن إمكانية أن يصبحوا أصدقاء ، وهى صداقة قد تعود على إسرائيل بالفائدة أيا كان اتجاه المستقبل نحو الحرب أو السلم . ففى حالة الحرب فإن الصديق معونة ومصدر معلومات ، وفى حالة السلم يعبر نفس يقرب بين طرفى النزاع السابق وتعاملت معهم السلطة الإسرائيلية على أساس هويتهم العربية المستقلة . كأنهم يجربون معهم ما إذا كان من الممكن أن يتعايش العرب واليهود . بل إن التجربة مشابهة فى غزة حيث نجحت إسرائيل فى التعامل مع ثلاث قواعد :

الأولى من العاملين بالصناعة والتجارة الذين يتعاملون مع أمثالهم الإسرائيليين والثانية من العاملين بالزراعة والتجارة الذين يتعاملون مع الأردن ومن خلالها الدول العربية (وبهذا تكون الدول العربية قد سبقتنا بمراحل فى عملية التطبيع الاقتصادى مع إسرائيل بينما هى محتفظة بحق لوم مصر لمجرد إعلانها نية التطبيع حتى قبل أن تنزل ساحته بكل طاقتها) .

والثالثة ممن ليست لهم مصالح مباشرة ويمكن أن يتعاملوا مع المنظمات الفلسطينية المختلفة .

والتعامل معناه أن اسرائيل تستفيد من

الثلاث : فى الأولى لتأكيد ما جريته فى العريش ولم نجن ثماره بعد وهو أن توفر كتلة من البشر . تقوم بدور المعبر النفسى بين اليهود والعرب محليا (أى داخل نطاق الأراضى التى تسيطر عليها إسرائيل) .

والثانية لتحقيق تطبيع العلاقات مع الأمة العربية حتى لو جمدت مصر هذه الخطوة معها أو عطلتها .

والثالثة لاستخدام الفلسطينيين لتصفية بعضهم توفيرا على أجهزة الإرهاب المضاد من المخابرات الإسرائيلية من القيام بذلك . فالمنظمات الفلسطينية رغم أنها على المستوى القيادى تمثل أكثر التنظيمات العربية تقدما فى الحوار الديمقراطى فيما بينها فإنها من الصعب أن تنفصل تماما عن الجهات العربية وغير العربية المؤيدة لها التى تتعامل مع بعضها ومع غيرها بالمعاملة التصفوية الجسدية . وما على المخابرات الإسرائيلية إلا أن تخفف قبضتها قليلا حتى يتحقق المراد وهو أن يقتل عرفى عربيا آخر . وما يحدث فى غزة ليس إلا تصغيرا لما يحدث خارجها . سواء بين الأفراد أو المنظمات أو الشعوب أو الحكومات . فإسرائيل لم تعد فى حاجة إلى قتل العرب مباشرة فهم يتوبون عنها فى قتل بعضهم البعض .

بينما مصر فقدت ما تبقى لها من قدرة على الاحتفاظ بدرجة . مهما كانت محدودة من الولاء من قبل سكان غزة . وذلك بأن خفضت أعداد الطلاب الوافدين منها . الأمر الذى اضطرهم إلى الذهاب إلى دول أوروبا الشرقية لتلقى العلم وتنمية الولاء للكتلة الشرقية . وخاصة أن الدراسة فى الدول العربية الأخرى محدودة علاوة على أنها مكلفة وهو أمر يستوجب إعادة النظر من قبل مصر . وينبها إليه شاب العريش كما سوف نبين بعد قليل :

لقد قدم الشيوخ فى العريش لمصر هذا الدرس : إن التعايش السلمى ممكن بين العرب واليهود مادام يحترم كل منهما هوية الآخر . ويعطيه حق ممارسة حياته وهويته فى أرضه .

ويقص أحد الشيوخ كيف إنه كان يتاجر فى السمك . واعترضه فى الطريق ضابط إسرائيلى وجنوده . وطلب الضابط سمكة وعرض على التاجر ثمنا أقل بقليل من سعر السوق . نظرا لأنه لم يكن قد تحمل بعد أعباء البيع بالتجزئة . فرفض التاجر بعنف واختطف السمكة من يد الضابط بعد أن أخذها . فلما همس الجنود فى أذنه برغبة الضابط . لم يأبه وقال إنه يستطيع أن يشكوه للمحاكم الأكبر منه ويأخذ حقه . واكتفى الطرفان بذلك عن القتال بأن هذا ممكن . فقد أيقن الجميع أن سيادة القانون فوق كل منصب وكل جنسية وكل محسوبية حتى رغم الاحتلال . شىء واحد كانوا يعلمون أنه يشكل استثناء : وهو تعرض أمن اسرائيل للخطر وأمن إسرائيل كما نعلم مفهوم مطاط وهنا تضطرب تماما قيم الإنسانية والعدالة .

ويقص شيخ آخر كيف إنه أغلق محله التجارى تماما طيلة فترة الاحتلال معلنا احتجاجه عليه ومكلفا نفسه خسارة اقتصادية كبيرة . ولم تتعرض له السلطات بسوء . وتستمر قصص الإحساس بالحرية حتى بعد زوال الاحتلال الإسرائيلى . إذ حينما توفى أول محافظ مصرى حاملا معه العقلية العسكرية التقليدية (ملخصها أن سكان الحدود شوائب بشرية تعطل وظيفة الحدود) احتجوا على معاملته . وتلقى الرئيس السادات رسالتهم بروح ديمقراطية طيبة ولبى طلبهم بأن غير طريقة التعامل معهم .

كان الكثير من الشيوخ شديدى الحساسية فى بداية الأمر لمن كان يشكك فى ولائهم أو عروبتهم . فبالغوا فى تأكيدها وإظهارها وبالغوا أيضا فى إخماد أى صوت من بينهم . وخاصة من الشباب . يشير بالخير إلى ذكريات الاثنى عشر عاما . وكانوا فى بداية الأمر يفعلون ذلك مجاملة لضيوفهم القادمين من القاهرة إلى أن تيقنوا أن ضيوفهم هم ممن يرون فى المجاملة إهانة . بينما المواجهة الصريحة تعبير عن محبة . عندئذ فقط فتحوا قلوبهم .

ثانيا الشباب : وهؤلاء بعضهم قد تكونت شخصيته منذ الطفولة وعبر الثنى عشر عاما تحت ظل الاحتلال . بينما البعض كان يحمل بعض الذكريات عن مصر .

الطفل الذى ينفصل عن أبيه أو أمه لظرف أو آخر . ثم يجد هناك من حل محلها (أو أحدهما) ورعاه . قد يتعود على الوالد الجديد ويتخذه بديلا حقيقيا . وقد ينسى الوالد الأصلى وخاصة إذا كان السبب فى انفصاله عنه نهائيا كالموت أو الطلاق البين أحيانا . ولكنه كثيرا ما يرفض الوالد الجديد ولو جزئيا . وقد يعين نفسه على تحمله بما فيه من عيوب بأن يقول لنفسه إنه مضطر للتعايش معه وأنه لو ترك له الاختيار لفضل أن يعيش مع والده الأصلى . ويأخذ فى تخيل الصفات الحميدة فى الوالد الغائب بينما يسقط الصفات الرديئة على الوالد الذى يعيش معه .

هكذا فعل بعض شباب العريش الذين تقبلوا « الوالد » الإسرائيلى على مضض . بينما كانوا يحلمون بالصدر الحنون للوالد المصرى الغائب . كانوا فى أحلامهم يمجدون مصر ويعتزون بها . ولكن واقعهم كان مليئا بالتعرض اليومى لتأثير الوسائل الإعلامية والتعليمية الإسرائيلية . وهو تأثير مازال مستمرا بفضل ضعف الإرسال اللاسلكى (والسلكى أيضا) من جانب مصر .

كثيرا ماكان هذا التأثير منافيا لما يتلقونه من تربية فى منازلهم . هل سيناء جزء من مصر أو هى جزء من إسرائيل ؟

وأين نذهب نحن فى هذه الحالة ؟ هل نحن عرب ومسلمون ؟ إذن فلماذا تمنع عنا بعض الآيات القرآنية التى تتعلق باليهود ؟ وكيف نتعرض لهذه الإثارة الجنسية التى تدخل منازلنا على الشاشات الصغيرة ؟ أى لبس نلبس وأى مسلك نسلك ؟ وغير ذلك من تساؤلات تعكس ذلك التناقض الطبيعى بين ما ينشأ عليه الطفل فى منزله وما يتلقاه ويثقف عليه فى المجتمع الجديد .

إنه تناقض حاد . لعله يعكس التناقض بين القديم والجديد . وبين الشيوخ والشباب . ولكنه أخذ شكل التناقض بين العروبة واليهودية .

ولعل مما يضاعف من حدة التناقض أن الجديد المطروح من الناحية الفعلية ليس بكل هذا السوء . فمن من الشباب لايحلم فى داخله بأن يحل محل والده ويؤكد هويته فى مواجهته والثقافة الإسرائيلية وإن كانت تمثل بديل الأب المصرى فهى أيضا البديل للأب الأسرى . والشاب الذى يريد أن يتحرر من سلطان والده كثيرا ما يستعين بوالد خارجى فى المجتمع . الإغراء الطبيعى أن يستعين الشاب بالوالد البديل أو الجديد لكى يحرر نفسه من اعتماده على الوالد القديم . والوالد الجديد يعلم ذلك ويقدم له من الإغراءات ما لم يكن الوالد الأصل يقدمها .

فرص العمل مع المؤسسات الإسرائيلية التى تدفع أجورا عالية نسبيا أتيحت للشباب ، أتيحت لهم حينما احتاجت إسرائيل لمساعدهم لتبنى خط بارليف وتدافع عنه . وحينما احتاجت للأيدى العاملة الرخيصة نسبيا حتى يرتضى العامل الإسرائيلى فيعمل عملا أكثر مهارة وأكثر أجرا .

وكذلك قدمت إسرائيل نمطا حضاريا مختلفا يجذب الشباب ويحقق لهم رغبتهم الطبيعية فى الاستقلال عن الوالد الأسرى . فالعلاقة بين الكبير والصغير . أو الضابط والجندى أو الرئيس والمرءوس فى إسرائيل لا تحكمها المسافة الكبيرة التى تفصل بين مثيلاتها عند العرب . العرب بالمقارنة يبالغون فى احترام أو خوف الصغير فى مواجهة الكبير . أو إذا نظرنا بنظرة نسبية فقد نقول إن الإسرائيليين يبالغون فى المساواة بين الكبير والصغير . المهم أن نمط العلاقات عندهم أكثر جاذبية للشباب .

وينطبق ذلك على العلاقات بين الجنسين التى تتميز عند الإسرائيليين بحرية ومساواة لم يحلم بالأولى منها الشاب العربى ولا بالثانية منها الشابة العربية . نعم الشاب يريد الحرية والشابة تريد المساواة . وفى مواجهة كل هذه الإغراءات الحضارية أمام جاذبية الانتماء الأسرى وما يرتبط به من قيم حضارية محافظة تجد الشباب العربى فى العريش يتأرجح بين التطلع للتجديد والتشبث به . حتى لو كان إسرائيليا . وبين الإفراط فى التمسك بالقديم والتطرف فيه . فهناك أنماط من التدين والوطنية يشبه ظاهرة التطرف الدينى والسياسى فى العالم أجمع فى عصرنا هذا . وأحيانا يكون التوزيع على هيئة التطرف الظاهرى الذى يخفى التطلع الداخلى . وهو النمط الذى كانت تتميز به الفتيات أكثر من الفتيان .

الشباب من الذكور أغراهم العمل عبر الحدود وما يصاحب ذلك العمل من أجر مرتفع وتحرر من سلطة الأب الأسرى وقيمه الحضارية . وتسرعهم فى الحصول على هذه الحرية جعلهم يتركون التعليم . وفى ذات الوقت وفرت إسرائيل التعليم للفتيات دون الفتيان الذين فضلتهم عمالا . فالفتى أصبح يملك الحرية والقوة الاقتصادية بينما الفتاة تتسلح بالعلم والثقافة . وأمام هذا الانعدام للتماثل فى العلاقة بينهما تجد الفتى وقد عاد بالاستقلال الاقتصادى الذى يمكنه من إقامة أسرة مستقلة فى سن مبكرة بأن يتزوج . ولكنه يتزوج من فتاة مثقفة تعرضت لقيم المساواة بين الجنسين وتشبعت بها دون أن تملك القوة الاقتصادية التى تسمح لها بالمطالبة بتحقيقها . وهى لذلك تشكل بالنسبة لفتاها قيمة الحق بلا قوة فى مواجهة القوة بلا حق . وكما هو الحال فى مثل هذه المواجهة تجد القوة تزداد بطشا بالحق .

ومع ذلك فتاة العريش قوية بثقافتها رغم ضعفها الاقتصادى . مادام فتاها يتنازل لها عن قوته الاقتصادية فى مقابل حبها له .

ولكن الأمر تغير بعد انتهاء الاحتلال . إذ أن فرص العمل والأجور العالية لم تعد متوافرة . وبناء عليه فقد ضعفت قوته الاقتصادية ولم يعد قادرا على رعاية فتاته . فارتفعت نسبة الطلاق وطفت إلى السطح مشاكل الفتاة التى بلا عائل يرعاها .

ومما أن الندم لا ينفع ولا الأمانى . فلابد من مواجهة الصدمة بما يخففها : لعلها العودة إلى القيم الدينية والمبادئ الوطنية التى تعاون الإنسان على تحمل المصاعب .

والشباب فى العريش فى حاجة إلى رعاية . ولعل أول إنجاز فى تحقيق تلك الرعاية هو الإحساس بالمشاركة مع إخوانهم

فى الوادى وحين يشاركه

الطرفان فى تشخيص مشاكلهم الشابة والبحث سويا عن علاج تلوح فى الأفاق بوادر الأمل .

ومن المعلمات الشابات تبرز الأستاذة شاهيناز الشوربجى كمثال للقوة والثقافة والحس الوطنى الصادق .

إن ما آلم الأستاذة شاهناز الشوربجى هو معاملتها فى مصر كأنها أجنبية غريبة بل شبه جاسوسة حتى يثبت العكس من قبل الجامعة فى مصر التى حضرت إليها لتدرس إبان الاحتلال . وما أسعدها هو شعور الإخوة والانتماء الذى غمرتها به الزمالة بعد ذلك والذى تأكد وتكرر بزيارة هذه القافلة من الشباب لها فى بلدتها